يذم الشهرة ومتاعبها هو أعشق الناس لها وأولعهم بغرامها وهكذا بنو الانسان ما أغربهم

ومتى كان هذا الحال موجودا في نفوس الناس قديمها وحديثها فالعالم ينتفع بأعمال كبار النفوس ولله في خلقه شؤون

كما اني أقول أيضاً ان الشهرة في هذه العصور لا تصحبها المتاعب والمصاعب ولا يشوب لذاتها كثير الحذر والاحتراس فقد أصبح صاحب الشهرة في هذه الايام رفيع المقام عند الأمم الغربية التي تقدر مقام رجالها حق قدرهم لا كما كان في سالف الأيام وماضي العصور وهذا دليل على ارتقاء العالم واستعداده للحكم على الرجال في أسرع الأوقات وأختم قولي انى لم استوف البحث في هذا الموضوع لتشعب اطرافه ولعلي أعود اليه مرة ثانية أو ينتضي للكتابة فيه من يميط اللثام ويشفي هوى في الفؤاد

{ حافظ عوض }

﴿ الروسيا في آسيا ﴾

١

(ضياع خوقند)

ان من أعظم الاعمال التي شرع فيها رجال التمدن الحديث وستتم قريباً السكة الحديدية التي ستصل بين أوروبا وأطراف آسيا الشرقية وتقطع قارة آسيا بأجمعها من الشرق الى الغرب على امتداد نحو سبعة آلاف ميل وبذلك تقرب أوروبا من الشرق الاقصي وتكون الضربة القاضية على الصين وربما تعدى أذاها الى اليابان كما كانت السكة الحديدية التي أنشئت من بحر الخزر

(قزوين) الى سمرقند الضربة القاضية على جميع بلاد التركستان الي حدود كشغر .

وسياسة الروسيا الآن تطمح الى أخذ ما أمكنها من أقاليم الصين الشمالية وقد حصلت على بعض أمنيتها باحتلال ميناء آرثر وثغر تالينوان وبمد خطوطها الحديدية من مندشوريا اليها

فأصبحت أقوي الدول فى مياه الصين كما انها من جهة أخرى أعلنت باستقلال كوريا وبقطع ما كان يربطها بالصين واليابان من ربط التابعية والسيادة توطئة الي امتلاكها في المستقبل القريب

نعم ان انكلترا والمانيا واقفتان لها بالمرصاد وتحصلتا على امتيازات عديدة مقابل ما منحته الروسيا الا أن سكة حديد سيبيريا ستجعل للروسيا المقام الأول والقول الذى لا يرد في جميع جهات المشرق الأقصي اذ يمكنها بواسطة هذا الخط ارسال جنودها من أوربا الى الصين في أقل من عشرة أيام بينما يلزم لكل من المانيا وانكلترا أربعون أو خمسون يوما لارسال جنودهما بحراً الي أقاصي المشرق

ولما كانت المسائل الاستعمارية اكبر شاغل للعالم فى هذه السنين التى طمحت فيها جميع الدول الي اقتسام جميع أقاليم الدنيا وتسابقت الى وضع يدها على كل ما تصل اليه بدعوى نشر المدنية والعمران فى الظاهر ولاستثمارها وابتزاز أموالها والاستئثار بخيراتها فى الواقع ونفس الامر

ولما كان للروسيا في هذا الميدان مقام سام في القارة الاسيوية رأينا أن نشرح للقراء فى هذه العجالة كيفية استيلاء الروسيا على أقاليم آسيا الوسطي والتقدم تدريجا الي أن التصقت تخومها بتخوم الهند الانكليزية فى

جبال البامير التي تفصل بين الهند والصين وتركستان وتقسم القارة الاسيوية الي ثلاثة أقسام عظيمة والتصاقها أيضا بتخوم افغانستان بالقرب من هرات بحيث صارت آخر محطاتها العسكرية لاتبعد عن هذه المدينة باكثر من تسعين كيلو متر اتقطعها الجنود في نحو أربعة أيام . فنقول

يطلق اسم تركستان أو بلاد الترك الاصلية على الاقاليم التي يحدها شمالا سهول سيبيريا الغربية وجنوبا بلاد الافغان والعجم وشرقا الصين وسيبيريا الغربية وغربا بحر الخزر الذي يسمي أيضاً بحر قزوين لوجود مدينة بهذا الاسم على شاطئه الجنوبي ومن ذلك أخذ الافرنج اسم بحر كاسبين

وكانت هذه البلاد في صدر الاسلام منبع العلوم ومشرق أنوار العرفان ومهد رجال العلم والآداب اذ ينسب اليها الامام البخاري وغيره ممن كانت لهم اليد الطولى في علوم الاسلام .

ولما ظهر تيمورلنك الشهير أدخلها ضمن مملكته الواسعة ثم انقسمت بعد موته الي عدة ولايات صغيرة لاهم لحكامها وأمرائها الا الاغارات على بعضهم البعض والاستبداد فيمن ولاهم الله عليهم من عباده غير ملتفتين الى نتائج هذا الانقسام الوخيم العواقب .واستمروا على هذا الحال حتى داهمهم الروس ففتحوا بلادهم ولم ينبههم اقتراب الاجنبي من حدودهم الي واجب الاتحاد والتضافر لمقاومة ذلك العدو المفاجيء ولم يكتفوا بهذا الانقسام بل ساعد كل منهم الاجنبي على فتح بلاد جاره

وكانت بلاد تركستان تنقسم عند شروع الروس في فتحها الى ثلاثة أقسام أصلية وهي امارات « خوقند » و « خيوه » و « بخاري » بخلاف قبائل التركمان الرحل النازلة على حدود العجم وكانوا تابعين اسما الى امارة خيوة

ولنتكلم الآن على ضياع امارة خوقند بما انها كانت أول امارة فقدت استقلالها من تلك الامارات الثلاث

ابتدأ الروس زحفهم بالاستيلاء على السهول التي تسكنها قبائل «الغرغيز» (ومعناها في لغة القوم الرحالون) فاستولوا على بلادهم بعد عناء كبير وأسسوا مدينة {فرنويا} وجعلوها عاصمة لها واتخذوها مركزا لاعمالهم الحربية وفي سنة ١٨٤٨ احتل أمير خوقند وادي نهر سرداريه (المسمي في كتب العرب نهر سيحون) وأقام فيه عدة حصون منعاً لتقدم الروس وجعل مقامه في مدينة «آق مسجد» ليراقب حركاتهم فاستمر الحرب سجالا بين الطرفين الى أواخر سنة ١٨٥٣ وفي ١٧ دسمبر من تلك السنة استولى الجنرال «بيروسكي» على مدينة «آق مسجد» ومحا اسمها وسماها باسمه

وفي سنة ١٨٦١ استولي الروس على قلعة «يكي كورغان» وفي سنة ١٨٦٤ احتلوا مدينة «خضرت» وسموها تركستان وعلى مدينة «اولياطا» وفي ستمبر من السنة المذكورة استولوا على {چمقند} فأتي أمير خوقند لمحاربتهم فهزمه القائد {شرنايف} في ٩ مايو سنة ١٨٦٥ وجد في السير خلفه مسافة ١٥٠ كيلو متر الي أن دخل مدينة طاشقند الشهيرة رغما عن أوامر حكومته بعدم التقدم الى الجنوب حتى يأتيه المدد وبعد فتحها جعلت عاصمة لبلاد التركستان الروسية وصارت مركزا عسكريا تسير منه الجيوش لتتميم الفتح وبذلك تم استيلاء الروس على نصف امارة خوقند الشمالى

ولبيان كيفية استيلائهم على القسم الثاني منها المسمي باقاسيم فرغانه نذكر بعض ماحصل فيه من الحوادث الداخلية التي أدت الي مداخلة الروس ثم الي ضياع استقلالها ليعلم الناس كيف كان أمراء تلك الاقطار

يتنافرون ويتحاربون على أبسط الاسباب . والعدو واقف على الابواب ينتهز الفرص للقضاء عليهم وهم غافلون لايحسبون لوقوفه أي حساب . ان في ذلك لعبرة لأولي الألباب

في سنة ١٨٤٠ حارب { نصر الله خان } أمير بخارى (محمد على خان) أمير خوقند وقبض عليه وقتله وضم ممالكه اليه فالتجأت عائلته الي قبائل الغرغيز فساعدت (شير على) أحد أقارب الخان المقتول على اخراج البخاريين من بلاده وأعادت الملك الي عائلته . ثم في سنة ١٨٤٦ ثار عليه (مراد خان) أحد أقاربه وقتله ثم قتل هو أيضا بعد بضعة أسابيع وعين مكانه (خدايار خان) ابن « شير على » السابق الذكر . وفي سنة ١٨٥٧ طرده أخ له اسمه { ملا خان } فاحتمي خدايار بأمير بخارى . وفي سنة ١٨٦٢ عاد خدايار فاستولى على مدينة طاشقند ثم على خوقند وطرد « شاه مراد » واستولي على الملك وبسبب حصول هذه الفتن المستمرة تداخل مظفر الدين خان أمير بخارى في الامر وأغار على ولاية خوقند فالتجأ أميرها الي قبائل (كيبچان)

هذا ولما عمت الفتن هذه الولاية التعيسة واضمحل حالها وتمكنت العداوة بينها وبين ولاية بخاري صار من السهل على الروس تتميم مقاصدهم نحوها فتقدموا الاستيلاء عليها وتم لهم الامر في قليل من الزمن وأعادوا خدايار الى الملك تحت حمايتهم في سنة ١٨٦٥ بعد ان تنازل لهم عن الجزء الشمالي من ولايته كما سبق شرحه

وبعد ذلك بعشر سنين قضتها الروس في تنظيم ادارة مافتحوه من البلاد وفي فتح مايجاورها ومايليها من الاقاليم تم للروس فتح مابقى من امارة خوقند الي جبال الپامير وذلك بسبب ماحصل من الفتن الداخلية التي لايخلو

حدوثها من عامل أجنبي

وذلك أن قبائل «القره غرغيز» ثارت على الامير خدايار وهزمت جيوشه وأسرت ولده ناصر الدين ثم دخلت مدينة «مرجيلان» على غرة وألزمت مراد بك أخا خدايار بالانضمام اليها فخرج الامير بنفسه لمحاربتها ومعه سفير الروسيا وحرسه من القوزاق ولما اقترب من الثائرين انضم جيشه اليهم فلجأ الي الفرار تحت حماية عساكر القوزاق الى طاشقند الروسية فأقام الثوار ولده ناصر الدين أميرا مكانه وطلبوا من الروسيا قبول تعيينه فاعترف به الجنرال كوفمن بعد أن أمضي معهم عهدة تجارية كلها في صالح الروسيا

وبعد قليل تعدت قبائل الكيبجان حدود الروسيا فسار الروس اليهم وانتصروا عليهم في ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٥ واستولوا بعد ذلك على مدينة خوقند نفسها ومدينة مرجيلان وفى ٢٢ ستمبر سنة ١٨٧٥ أمضى الجنرال (كوفمان) مع الامير ناصر الدين خان معاهدة تنازل بمقتضاها للروسيا عن جميع البلاد الواقعة على الشاطيء الايمن من نهر سرداريه (سيحون) وبقي ناصر الدين حاكما على مابقى من ولايته على الشاطيء الايسر لكن لم يمهله الروس الا بضعة شهور ثم عزلوه في شهر يناير سنة ١٨٧٦ ونفى هو ووالده خدايار الى روسيا (فى أوروبا) بعيدا عن كل علاقة مع بلاده الاصيلة. وهكذا تم ضياع امارة خوقند وجعلها الروس ولاية روسية سميت ولاية فرغانه وجعلت عاصمتها مدينة مرجيلان الجديدة التى أسسها الروس على بعد ١٥ كيلومتر جنوبى مرجيلان الاصيلة «باحث»